ليلها وأخرج ضحاها » فظهر أنه لاتناقض ولا تنافي ولاتخالف بين آيات (فصلت) وآية النازعات . وثم وجوه أخرى ذكرها المفسرون تنطبق على اللغة وانما ذكرنا ماهو الراجح عندنا بحسب ماوصل اليه علمنا وفوق كل ذي علم عليم

القسم العمومي

﴿ نظام الحب والبغض — تابع ويتبع ﴾

ماهو الخير والشر ؟

هاتان الكلمتان (الخير والشر) وما رادفهما يرد ذكرهما كثيراً في العلم الباحث عن أحوال النفس ومعاملاتها بل عليهما مدار هـذا العلم في أوامره ونواهيه لأن الأنسان في حبه طالب خير وفي بغضه هارب من شر . وهـذا هو ديدن الانسان مدة حياته . وكل واحد يعتقد في الجهة التي يطلبها الخير لنفسه وفي الجهة التي يهرب منها الشر (اللهم الامبغضي ذواتهم) وكل واحد ينبسط للخير وينقبض من الشر . ولكن هل كل واحد يعرف ماهو الخير وما هو الشر وهل كل من اعتقد في جهة من الجهات الخير أو الشر مصيب ؟ لو كان كل واحد عارفاً بهما لكان كل واحـد مصيباً في طلبه وهربه ولو كان كل واحد مصيباً لتضاءل الشر وتبارك الخير .

هذه القضايا مسلمة وبناء عليها نسأل ويقال لنا : من ذا الذي يتولى للناس تعريف هاتين الكلمتين ؟ فنقول هم الباحثون في أحوال النفس . فنسأل مرة أخرى ويقال لنا: من هم أولئك الباحثون ؟ هـل هم الا أناس أمثالنا ؟ وفي هذا السؤال رائحة الإباء والاستنكاف فيجب ان يكون في الجواب رائحة الرفق والأناة فنقول: الباحثون في علم النفس أناس أمثال غيرهم من حيث الصور الجسدية وكذلك الباحثون في كل عـلم . ولكن لكل امرىء في هـذه الحياة عمل تتفق له فيه اجادة لاتتفق لغيره سيما ان كان ذلك الغير ليس من أرباب ذلك العمل . مثاله الشاعر هو رجل وأنت ياأيها الفـلاح رجل فهل أنت عاجز عما يعلمه ويعمله هو ؟ أليس لإنك لم تعان الشعر ؟ (بلى) واني أبشرك بأنه هو عاجز أيضاً عمـا تعلمه وتعمله أنت لأنه لم يعان ماعانيته . كذلكم قولوا في الصائغ هو عاجز عما يعلمه ويعمله الخياط والثاني عاجز عما يعلمه الاول ،

وكذلكم قولوا في أرباب العلوم والصنائع كلها . ويومئذ لا يصعب عليكم ان تقولوا ان الذي يعانيه علماء النفس من التفكر والتذكر واختبار الاحوال وتجربة الأمور ربما لا يتفق لغيرهم ان يعانوه . فاذا كانوا أمثالهم من جهة صورة الجسد لا يلزم ان يكونوا أمثالهم من جهة صورة الفكر . ولعمركم ان ابن خلدون والغزالي لا يحصى مشابهوهما في الخلقة ولكن مشابهوهما ومقاربوهما في صنعتيهما يعدون على الأصابع وربما لا يبلغون عدد أصابع الكفين .

فاذا علم السائل هذا وسهل عليه ان يعرّف له علماء النفس (في انفرادها واجتماعها) الخير والشر فليصغ الى ما اقتبسناه منهم بفكر خالص من الوهم والتقليد وليتأمله بعقله المستفاد لا بعقله المستعار .

« الخير هو استعمال الانسان ما خلق الله من القوى والاستعدادات في خلقت لاجله استعمالا مشروعاً (أي تابعا لشرع) يراعى فيه حق الغير » والشر ضده أي عدم الاستعمال مطلقا أو الاستعمال في غير ما خلقت لاجلها أو الاستعمال الذي ليس بتابع لشرع .

هذا التعريف واف جامع لكن التعاريف في الحقيقة لا يستغنى بها الناس عن الشروح والايضاحات والأمثلة (اللهم الا أذكى الاذكياء) فكأنها أمهات سطرت لتكون قاعدة وأصلا للشروح ولتحفظ عبارتها الجامعة بعد ان يحيط الناس خبراً بالمشتهى من الايضاحات والأمثلة .

ان الله جل ثناؤه قد خلق في الانسان قوى واستعدادات بعضها نصيبها مباشرة المحسوسات وبعضها نصيبها ملاحظة المعقولات فكل ما يستعمل فيه الانسان قواه وبناله يلتذ به وكل ما يلتذ به الانسان خير الا لذة تؤدي الى ألم أو لذة يغصب فيها حق الغير . وكل ما يمنع الانسان عن استعمال القوى فهو شر .

(مثال أول) أنت اذا أكلت فمعناه (١) انك تمكنت من ان تأكل وهو دليل عدم مرضك وعدم حرمانك من حصول الطعام . و (٢) انك استعملت القوة المخلوقة لك لأجل الأكل لحكمة حياتك وهو دليل عقلك لذاتك لأنك لولم تستعملها لم تحي . ودليل انك وافقت الفطرة التي فطرك الله عليها . و (٣) انك تلذذت في أكلك وهو دليل سلامة حواسك . وكل هذه الأشياء لا شك في كونها خيراً . أما اذا أكلت فوق

الشبع فانك سوف تتألم إما عاجلا وإما آجلا . وقد عطلت في هذا الأكل القوة التي تستطيع بها ان تأكل . وذللت لذلك فيما بعد . وخالفت الأدب . وكل هذه شر . وكذلك اذا تعديت في أكلك على حق الغير كأن غصبت الذي أكلته من غيرك فإن هـذا يؤدي الى ان يشاجرك عليه وقد يقوى عليك بقوته أو القوة المؤلفة لحفظ الحقوق (قوة الحكومات) واذا قوى عليك فقد يغصب منك ماتحتاج اليه وقد يعمل فيك أعمالا تمنعك عن الالتذاذ بالأكل . وكذلك اذا استعملت القوة في غير ماخلقت لاجله كما اذا أكلت سما أو ترابا . أو لم تستعملها ألبتة كبعض الذين يعملون ذلك ويجوعون اياماً كثيرة عمداً . فكل هذه المذكورات شر .

(مثال ثان) وأنت اذا واقعت فمعناه (١) انك تمكنت من الوقاع ولم يمنعك مانع . و (٢) انك استعملت القوة المخلوقة فيك لاجل الوقاع لحكمة بقاء النوع . و (٣) انك وافقت الفطرة . و (٤) انك أحييت غيرك و (٤) انك تلذذت . وكل هذه المذكورات دليل سلامة حواسك وسلامة فطرتك وسلامة عقلك ودليل أمنك من الموانع القهرية كالموانع الذاتية . وكلها خير اذا كان وقاعك نابعاً لنظام . أما اذا أفرطت في الوقاع افراطاً يعطل القوة أو استعملت القوة في غير ماخلقت لاجله كأن واقعت بهيمة أو دبرا أو أهملت الوقاع المشروع من غير مانع . فإن هذه الاشياء عين الشر .

(مثال ثالث) وأنت اذا اكتسيت فمعناه (١) انك حصلت ماتتقي به الحر والبرد و (٢) انه أحبك الغير اذ عمل لك ماتلبس وأحببت الغير اذ سترت عن عينه ماربما يكره ان يراه و (٣) انك أحييت ذاتك اذ وقيتها أو زينتها . وكل هذه خير . أما اذا لبست مالا عدل فيه كلبس مالايلائم عملك كديباج وأنت تعمل في الطين أو قبب غليظ وأنت حاكم أو بزاز وكلبس شيء يليق بالاناث دون الرجال وكالتزين بشيء يحتاجه الناس للمبادلة أشد الاحتياج . أو أبغضت ذاتك فلم تلبس اولبست مايلائم عملك أو لبست مالا يلائم الزمان كلبس أخف الثياب في أشد الايام برداً وبالعكس . فكل هذه وما أشبهها من الاشياء التي لاعدل فيها شر .

(مثال رابع) وأنت اذا أويت الى ميت وبت في أمان فمعناه (١) انك نلت حاجة لايعلو فيها عليك الملوك الا بالزخرف . و (٢) انك نلت من فوائد اشتراكك مع الهيئة

المجتمعة لأنك ماوجدت هذا البيت الا بفضل اجتماعهم ولا وجدت هذا الأمان الا بفضل التكافل المشروط طبعاً ووضعاً وشرعاً ولولا ماذكرنا لما كان بيتك أفضل من جحر الوحش ولا كنت بآمن من حمام بين صقور، ولا آنس من حي بين موتى القبور، فقدر هذا الخير بنظرك لتعلم فضل غيرك على ذاتك ولتعلم ان لذاتك فضلا على غيرك به استوجبت فضله عليك. ولتعلم من هذا ان الأمر تكافؤ وتكافل. لا تطول وتفضل، وان الفضل كله لله وحده، وان الخيرات لا تمدونا طرفة عين ولكننا غافلون نجلب الشر على أنفسنا بأنفسنا حنيناً منا الى جهالات سبقت ونحن لها متوارثون الى ان يأذن الله بتقشعها رويداً رويداً.

أما اذا استوحشت نفسك وتشبهت بالوحوش في مساكنها ومعايشها فمعناه انك أهملت الاستعداد الذي فيك وخالفت الفطرة وابغضت ذاتك فلا شك بأن هذه الحالة من الشر.

(مثال خامس) وأنت اذا فكرت في خواص المحسوسات وعجائب المعقولات فأنت يومئذ آخذ الخير المعظم يوم يتبع فكرك علماً وعلمك عملا وعملك نفعاً عميما وشرفا لنوع عظيم. بربكم قولوا لنا اذا استثنينا من هذا النوع أولي الالباب من الانبياء وذوي الافكار من الحكماء والمخترعين والمعلمين فأية مزية تبقى في الباقين وأي شرف لهم؟ أولئك هم مفاتح أبواب الخير ومصادر الشرف الأعلى لهذا النوع. أما من أساء استعمال الفكر كأن فكر بالعدوان وأساليبه فهو الشرير المظلم. ومثله أو قريب منه من أهمل الفكر لأنه يصعب علينا ان نفرق بين عامل بالشر وحامل عليه لانه فكر وبين واقع في الشر ومحمول عليه لانه لم يتفكر. نسأل الله السلامة لأفكارنا من ان نهملها ومن ان نعملها في باطل ومن ان نعميها بالتقليد.

هذا ويرى القارئ اننا تساهلنا أو سهلنا العبارة وتنازلنا بالتمثيل الى أمور ليس ادراكها بالصعب فربما ظن اننا نكتب كتاباً لقراءة المبتدئين. وهذا الظن قد ينشأ من أمرين الاول الاسلوب الذي التزمناه لزيادة التوضيح وعدلنا به عن سرد الكلام والثاني استصغار هذه الامور التي مثلنا بها. ولما كان الواقع يكبر هذه الامور التي سبكنا نضار حقائقها بقالب سهل المأخذ وجب ان نزيدها تبياناً ونزيد الخير والشر تعريفاً:

ان الانسان هذا المخلوق العظيم ، صاحب العقل المتين ، صاحب الرأي والتدبير ، صاحب السلطان على مخلوقات الارض ، والاشراف على مصنوعات السماء ، صاحب التمدين والاجتماع ، صاحب الابداع والاختراع ، صاحب المنطق المفيد ، والعزم الشديد ، صاحب الصورة التامة ، والروح العالية ، صاحب المآثر والآثار ، كاشف الخواص والاسرار ، هذا السائد بالفكر الممتاز ، لم يخرج في كل مزاياه التي عددناها وغيرها مما يعجز القلم عن تصويرها تصويراً شعرياً خيالياً أو حقيقياً عن كونه حيواناً محتاجاً كالحيوانات الى طعام وشراب ومأوى مسوقاً من طبيعة خلقته الى الوقاع ومعالجة ألم الباه . فهب انا سميناه قطب هذا الوجود ، وصفوة السر من كل موجود ، وهب انا رفعنا علوه فوق الشمس مقاماً وضياء ، وأحللنا فضائله فوق التصور درجة واستقصاء ، ونوهنا بمنزلته عند خالقه ، وعظمنا الاعتبار الطبيعي من خلائقه ، أفنستطيع ان نقول انه مقدس عن المطعم والمأوى والمنكح ، بعد ما اختبرناه دهوراً دهارير ، وبلوناه فذا وفي العير والنفير . هل علمنا منه غير كونه هلوعاً اذا مسه الخير مما يغذوه ويكسوه كان منوعاً ، واذا مسه الشر من جوع وعري كان جزوعاً ، هل عهدنا به الا التقاتل من طمع أفراده وحبهم الاستئثار ؟

هذا هو الانسان الذي يعرفون ماضيه وما انم عن حاضره بغافلين . هذا هو المخلوق الذي فطره خالقه محتاجاً ويسر له ما يحتاج اليه وخلق فيه سائقاً يسوقه نحوه وجاذباً يجذبه ودافعاً يدفع ما يرى استغناءه عنه . أفنسمي هذا التركيب الذي ركبه الصانع شراً . أم عمل المخلوق بحسب التركيب . أم تيسر الحاجة التي لابد منها . أم اللذة الطبيعية في نيل هذه الحاجة ؟ واذا لم تكن هذه شراً فهل بقي الا الخير ؟

سيقول قائلون ان هذا الاحتياج لايدفعه الانسان عن نفسه بتحصيل الحاجة الا بكد ونصب وقصارى الامر في حصول الحاجة انها تسكن ألماً تقدم الحصول فهب انا سمينا تلك الامور خيراً أفليس الشر قبلها وبعدها .

هذا كلام له وجه ظاهر ولكن ههنا اعتقادان في حياة الانسان احدهما ان الانسان يستفيد منها والآخر انه لايستفيد فإن كان السائل ممن يعتقدون استفادة الانسان من الحياة فجوابنا له ان الالم السابق الذي يسكنه نيل الحاجة وتعقبه بهذا النيل اللذة ليس

شراً بل هو لتعرف به اللذة ويشعر بها ولو كانت دائمة لما أحسّ بها المرء وهذا كسبق العدم على الوجود والجهل على العلم والضعف في الطفولة على القوة في الرجولية ونظائر ماذكرنا . على انه اذا سمينا تلك الآلام وما يتبعها من لزوم الكد والنصب والمجاهدة شرورا فلا ضير فيها اذا كانت الخيرات تدفعها وتمحوها ويدلنا على ذلك استعذاب الحياة مع كل المرارات التي تصادف في سبيلها وماذلك الا لان الخيرات لا يطول احتجابها كالشمس اذا حجبها الدجى واستأنف النهار يشرق بضيائها . وان كان السائل ممن لا يقولون باستفادة الانسان من الحياة فجوابنا له : اذا كانت الحياة من أصلها حملا ثقيلا والاحوال فيها متضادة ومتعاقبة يعقب الضدّ فيها الضد فمهما صادفنا الضد الذي نرتاح به زمناً من الازمان كان جديراً بنا ان نفضله على ضده الذي يتعبنا . وهذا هو معنى الخير والشر اللذان هما ضدّان . على انك يامنكر الاستفادة من الحياة يشم منك رائحة اتباع الخيالات الفاسدة ويتفرس فيك انك مبغض أو مستبغض ذاتك . ويتوقع بك كل شر فدعني منك .

ان هذا الانسان البديع خلقه لم يخلقه الخالق عبثاً وانه خلق لامر عظيم . وانه سائر الى كمال بديع . وانه شاء أو أبي يحيا في هذه الدار محباً للحياة . ويكدّ فيها غير مالّ من الكدّ . وان الصانع خلق له مافي الارض جميعاً . وقسم بين أفرادها الاعمال . وخصّ كل عامل بما يناسب عمله من طعام ولباس ومبيت . وأعان كل عامل على عمله . وعلمه مالم يعلم . واتحفه بهذا الفكر العجيب . الذي به امتيازه العالي . فانقسم الانسان بحسب جسده وفكره بين جهتين تتعاور عليه فيهما الخيرات والشرور التي جعلها الصانع ممتزجة ببعضها . وجعل للجسد من الخيرات لذات المطاعم والمشارب والمناكح والمساكن . وللفكر من الخيرات لذات الادراك للامور البعيدة والاختراعات العجيبة . والتأثيرات المعنوية الغريبة . وجعل الخيرات متيسرة . ولكن تجاوز الحدود هو الذي يوفر الشرور . وتجاوز الحدود أكثر ماينشأ من قلة التفكر وعدم العلم بنظام الحب والبغض أي بأحوال النفوس في انفرادها واجتماعها . ومن أحب ذاته حق المحبة هيهات ان يظلمها . ومن أراد ان لا يظلم نفسه فليحارب من لا يظلمون غيرهم وليحارب من يظلمون . فلا جناح علينا ان نبيع الحياة وهي أغلى شيء في جهاد الذين يظلمون غيرهم لعلنا نحيا لا نظلم ولا نظلم . أو يحيا أبناؤنا من بعدنا على هذه الشاكلة . لماذا نحيا عالمين أن ذوات غيرنا كذاتنا فنأخذ مالنا وندع لهم مالهم . لماذا نحيا متعاونين فنحن كانا

أخوة. سواء بالحياة والممات. سواء بالحاجة للاكل والشرب والنكاح. سواء بالتكلم والتفكر اللذين يميزاننا عن العجماوات. سواء بالفرح والالم اذا فزنا أو خبنا. سواء بالخوف والرجا في يومنا وغدنا.

ونحن سواء بالتفكر والعنا بتحصيل ما نحتاج في كل معمل
ترى أعجزنا ان نسالم بعضنا لنسلم من عدواننا والتقلقل
ترى أعجزنا ان نعاف رذائلا ونهجر أوهاما رمتنا بأحبل

اللهم الهمنا رشدنا وأعنا في استثمار الخيرات الموهوبة لافكارنا إنك مفيض الخير، وأنت المستغني وحدك عن الغير.

(ع ٠ ز) — تمة بقية —

آثار علمية أدبية

نموذج من دلائل الاعجاز (*)

تمتاز كتب الامام عبد القاهر الجرجاني واضع فنون البلاغة (رحمه الله تعالى) على سائر الكتب التي ألفت من بعده بعدة مزايا منها أن عبارتها بليغة. وأساليبها رشيقة. ومنها تصوير المعاني شخوصا تامة سوية. حتى كأن المعقولات ملموسة مرئية. ومنها كثرة إيراد الشواهد والامثلة على الوجه الذي اختاره الاوربيون ومقلدوهم في كتب التعليم لهذا العهد. واننا نورد هنا نموذجا من كتاب دلائل الاعجاز في علم المعاني وذلك من حيث انتهينا في الطبع بمطبعتنا (الكراسة أو الملزمة ٤٤). بين رحمه الله في فصول متعددة فساد رأي الذين ذهبوا الى أن الفصاحة والبلاغة صفة للفظ دون النظم والاسلوب باعتبار تصوير المعنى ثم ختم ذلك بفصل في الموازنة بين المذهبين فقال:

فصل

قد بلغنا في مداواة الناس من دائهم وعلاج الفساد الذي عرض في في آرائهم كل مبلغ، وانتهينا الى كل غاية، وأخذنا بهم عن المجاهل التي

(*) ان هذا النموذج نموذج للطبع أيضاً فالكتاب يطبع بهذه الحروف